

الشمائل التجانية

تأليف

العلامة القاضي العارف بالله
سيدي الحاج أحمد سكيرج
رضي الله عنه

دراسة وتحقيق
ذ. محمد الراضي كنون

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الشمائل التجانية (1)

حمدا لمن توج بتاج القبول أهل الخصوصية من خدام حضرته. وأدخل من باب الوصول من
انحاش لجانبه بصدق خدمته.

هم الرجال لهم مجال معرفة
بربهم فحباهم منتهى الأمل

فجلسوا على كراسي العناية، وحفتهم برداء رحمته، ونشرت عليهم ألوية الولاية، بما لهم من
كمال محبته.

باعوا نفوسهم لله فانشرحت
صدورهم للذي يرضاه من عمل

فبسطت لهم موائد الإنعام في بساط الأُنس به، ففتعموا بملذات الإكرام بتقربه، لكل واحد منهم
بما عينه تقر به.

ذاقوا بحضرته طعم الوصول فلم
يسلي امرؤ منهم عن طعم ما ذاقه
قد استلذوا بما قد ذاق في طرب
فجل في حضرة العشاق أطواقه

رفع عنهم الحجاب بعدما سقاهم خمرة الوصول، فأصبحوا في ذلك الجنب ممن يتوسل بهم
في نيل كل سؤل.

ألا إن أهل الله لا شك هم هم
الوسائط في نيل المراد من الله

وإن أكرم ولي على الله من بين الأصفياء، من خص من الحضرة المحمدية بكمال الظهور في الخلافة
الباطنية فكان خاتم الأولياء :

أحمد الختم التجاني المرتقى
مركز الفضل الذي قد نال من
في مراقي المجد في أولي العلا
خاتم الرسل مقاما قد علا

فأكرم به من ولي كان ظهوره في آخر الدهر من تمام الرحمة على الأمة من حيث لا
يشعرون، وأعظم به من ولي كان وروده وصدوره في أولي القدر من سر الحكمة التي تقدم بها على
الأئمة في كل محل يذكرون الله فيه ويشكرون.

نال من خير الورى فوق المنى
توجته يده تاج الرضا
وحباه منه غايات الظفر
فغدا ختما بعلياه ظهر

فرضي الله عنه من ولي تولى الله أمره كلها، فربته النظرة المحمدية بكمال الإعتناء به حتى
صير في يده من سائر الأمور شدها وحلها.

هو قطب الوجود والوجود منه
قد تجلى بين الورى في مقام
غمر الكون بالنوال العميم
تحته كل ذي مقام عظيم

قد بلغ الغاية في القطبانية، ووصل لما دون النبوة من المقامات التي لها الهيمنة على المراتب
العرفانية، فهو بعد الصحابة الكرام، لا يبلغ سواه أدنى مقام، من مقاماته طول الدوام، فصلى الله وسلم
على خير نبي منحه بذلك الإصطفاء، وحباه بما لم تقي بالإفصاح عنه السنة الفصحاء، في مدح أكابر
ال خلفاء، ورضي الله عنه وعلى سائر أهل البيت الطيبين، وصحابة سيد المرسلين أجمعين.

وبعد فقد حداني حادي المحبة في هذا الجنب الأحمدي والمقام المحمدي أن أقيد من شمائله ما
تقر به عيون أهل الولاية، وأملني من بعض مناقبه وفضائله ما فيه هدى وشفاء(2).

يحيا به قلب المحب وتتجلي
وبه ينال من السرور مسرة
عنه به الأكدار والأغيار
فيها بشرح صدوره أسرار

(2)

:

:

والباعث على جمعها في هذه العجالة ما اختلج في الصدر من القيام بهذا الصدد، لكونه مما ينفع ذوي الصدور السليمة لا محالة، فهو دليل بحول الله على البلوغ للسؤل، وبه يتوصل للحصول على ثمرة الوصول، بما اشتمل عليه من شمائل سيدنا رضي الله عنه وأرضاه وعنا به، وبما انطوى فيه من المكارم التي ستذكر بحول الله في أبوابه(3)،

ما فيه باهر أسرار وأنوار
فيه جميل اعتقاد دون الأشرار

فإن في كل باب من مناقبه
تشفي قلوب المحبين الذين لهم

وسميته بالشمائل التجانية، والله أسأل أن ينفع به سائر الإخوان، وأن تكون سببا في إقناع أهل النكران، بقطع لسان إنكارهم على أهل الله.

(3)

:

:

()

:

ولم يتب سلب الإيمان والدينا
بالخسر فيما يحاولونه حيناً

فإن من كان بالإنكار مشتغلاً
فكم أناس بإنكار لهم أخذوا

ولذلك ينبغي الإهتمام ببعض المسلمين الذين لم يذوقوا من طعم التصديق لأهل الله، بالتمني لهم بالتوفيق للتوبة عما اقترفوا من غير شعور منهم. فيما آذوا به من يحارب عنه مولاه، وقليل من اهتم بمثل هذا القصد الأحمدي، بالتمني للمسلمين ما لهم يحمد، فنسأل المولى أن يسلك بنا مسالك النجاة دنيا وأخرى، ويجعل السعي من العمل المشكور، ويعظم للجميع به أجراً آمين.

سابقة في المقصود من هذا التأليف

اعلم أن المقصود من هذا التأليف هو ذكر أحوال سيدنا رضي الله عنه من ابتداء نشأته إلى منتهاها، مع ما هي عليه ذاته الأحمدية وشمائله المحمدية، والتعرض لبعض فضائل طريقه وأذكاره، والتنبيه على جملة من مناقبه وأسراره(4).

مستغرق الوقت في التقاط أنواره
نزراً ومن بعدها كمال أنواره

فإن قلبي به بين الورى كلف
أعد ما قد ظفرت من محاسنه

غير أن ما أذكره وإن كنت لم أجتمع به رضي الله عنه، فإني قد تلقيت ذلك عن تلقوا ذلك عن تلاقوا به وصحبوه، وحباهم من قربه ما زادهم ودا فيه وأحبوه، وأعتد في غالب ذلك على ما استقدته من شيخنا العارف بالله، الدال عليه في سره ونجواه، والد روحنا، ومربينا بنظرته وكمال همته، سيدي ومولاي أحمد العبد لاوي رضي الله عنه وأرضاه وعنا به، مع ما تفرق في كتب الطريقة ووقفت عليه في مجامع الخاصة من المقدمين ورسائلهم، فقد ظفرت بحمد الله بجملة وافرة من أسراره وأسرار خاصة أصحابه الموقوف عليها في كنانيشهم وتقاييدهم بخط يدهم أو بخط من نقلها من خطهم.

وقد أشرت إلى جملة من مناقب خاصتهم على سبيل الإختصار هنا، ليكون هذا التوليف جامعاً لمحاسن غيره من التأليف الجمّة، ولعل بعض من اطلع على ما سيذكر من أحوال سيدنا رضي الله عنه

يتعرض إلى ما يراه بمعارض الإعتراض علي، وأقل ما يقول كيف يذكر صفة هذا الشيخ مع ما له من الأحوال وهو لم يجتمع به؟ ومن أين له مما جاء به؟ فأقول حينئذ :

إني أشرت لما اعتمدت في عملي
من شاء فليعترف بما اعترفت به
ولي بذلك علم واضح السبل
وما علي إذن في كل منخزل

ورتبته على أبواب تتشرح بها صدور الأحباب، وتتقبض عنها نفوس الحسدة الذين ينسبون للخطأ ما هو عين الصواب(5).

باب في شبيهه رضي الله عنه

كان سيدنا رضي الله عنه منور الوجه بالشيب، غاب اسوداده في بياضه، بل عمه الشيب، وهو في فرح تام من ذلك الوقار الإبراهيمي الذي طالما تمنى أن يناله قبل الوفاة، لما تحققه في عالم سره بما للشيب من كبير الحرمة عند الله، ويعجبه سماع قول القائل في خضاب مولاه :

إن الملوك إذا شابت عبيدهم
وأنت يا سيدي أولى بذا كرما
في رقه عتقوها عتق أبرار
قد شبت في الرق أعتقني من النار

ومثل هذا من المواعظ الحسنة، والتخلق بكمكارم الأخلاق لا يشوش فكر المحب الصادق في الضمان المحمدي لسيدنا رضي الله عنه في بلوغ مطالبه، وفوق ما طلب لنفسه وللمن أحب، ولكن كان رضي الله عنه كثيرا ما يحذر من الأمن من مكر الله، فتدعوه رقة القلب إلى إعطاء التجلي حقه أدبا من نفسه، وتأديبا لأبناء جنسه، على ما هو متحقق به في سره من الضمان الذي لا ينقطع استمداده دنيا وأخرى، ومع ذلك فيتأثر للموعظة ويحب سماعها، ويذكر بما ينفع المؤمنين.

فكان ينوه في مجالسه بما يتعين من آداب المرید مع ذوي الشبهة والنظر إليهم بعين الإعتبار والإحترام، ولا شك أن الصغير إذا احترم الكبير فإنه يظفر بما لم يظفر به المنتهك لحرمة، حتى أن

الحق تعالى يبارك له في عمره فيطول، وقد قيل : حقا على الحق أن لا يتوفى الموقر للشيب حتى يذكره، وورد في بعض الآثار : ليس منا من لم يوقر كبيرنا(6).

وقيل أنه وجد على عرش بلقيس منقوشا ما معربه :

ستأتي سنون هي المعضلات يرَاع من الهرعة الأجدل
وفيها يهين الصغير الكبير وذو العلم يسكته الأجهل

فعلى الإخوان التجانيين من واجب أدب الشيخ رضي الله عنه أن يلاحظوا هذا بين العين، ويلاحظوا كل كبير بلحظ الإحترام، سواء كان متمسكا بحبل هذه الطريقة أو غير آخذ لعهدا، فتعظيم ذي الشيبة متأكد مراعاته شرعا وطبعاً.

وقد كان سادتنا أصحاب الشيخ الذين ظفروا بملاقاته، وتتعلموا بمشاهدة طلعة نوره وبهجته، ينتافسون في اقتناء شعره الكريم عندما يحلق رأسه الشريف، ويحسن لحيته المشرفة، ويقدمون الإكرام للحجام الذي يتناول تحسين هيئة سيدنا رضي الله عنه ليكرمهم بشيء من ذلك الشعر الشريف، فهو عندهم من الغنائم التي يحصلون عليها، ويتبركون به ويجعلونه في أعز الأمكنة لينالوا بركته، فمنهم من أوصى بدفنه معه، ومنهم من يجعل الشعرة في فم ولده ليمتص ما بها من السر، ومنهم ومنهم، وكل على نيته يجازى، فيجدون بركة ذلك في العاجل، ويأملون حصول المطلوب لهم به في الأجل.

وإلى الآن لا زال يتوارث الإخوان شيئا من الشعر الشريف بقصد التبرك به، وعندنا بحمد الله شعرات منه، نسأل الله النفع بها، غير أنه يتعين الإحتراز من الدجاجة الكذابين على الإخوان، ممن يذخر بعض الشعرات وينسبها للشيخ وهي ليست له، فليحذر الصادق من المدعين.

باب في خضابه رضي الله عنه

كان سيدنا رضي الله عنه يتعاهد خضاب شعره المرة بعد الأخرى. إقتداء بسنة جده (ﷺ)، وكان يقتدي به في ذلك ذوو الشيبة المنورة من الآخذين عنه مباشرة، وكان رضي الله عنه يحبب لهم أعمال السنة بالترغيب، ويباشر جل السنن بحضورهم تحريضا لهم على العمل بها، ليتم الإقتداء لهم به في الإقتداء بالسنة.

وإلى الآن لا زال أثر صبغ الخضاب لائحا على نور بعض الشعرات المذخرة عند الذين يحافظون عليها من خاصة الإخوان.

باب في كحله واكتحاله (7) :

كان سيدنا رضي الله عنه محافظا على العمل بالسنة المحمدية، والتخلق بالأخلاق الكريمة السنية، والشمائل السنية، ويرغب أحبابه وأصحابه بالعمل بذلك بقدر الإمكان، ويباشر جل السنن بحضورهم، تحريضا لهم على العمل بها، ليتم الإقتداء لهم به باستنهاض هممهم في رؤيتهم لقيامه بنفسه، فيجدون بذلك تنافسا بالإقبال على ذلك، غير أنه كان رضي الله عنه يعمل في بعض الأحيان ببعض السنن ولا يتظاهر بها بين العامة، حتى لا يوسم بما اتسم به بعض أهل الدعوى الذي تشرأب أنفسهم للظهور والشهرة بمخالفة الناس، فترك بعض السنن التي صارت زيا لهم بنية مخالفتهم، سيما عندما يحصل بها كف السنة أهل الوقت في عرضهم بالتجاهر بها، فربما يعد هذا العمل من الأمر المحمود، ولذلك قال الشيخ زروق في مثل هذا ما نصه : ثلاث من السنة ينبغي تركها في هذه الأزمنة، ركوب الحمار، واتخاذ الوفرة، واستعمال الخاتم إلخ ...

ومن ذلك الخضاب والإكتحال، حيث كان العامة يلمزون من عملها، ويشار إليه بأصابع الغيبة والنميمة، فيكون معينا لهم على هلاكهم، ولذلك ترك الخاصة من أصحاب الشيخ رضي الله عنه وأحبابه العمل بهذه الشعائر التي صارت شعار أصحاب الدعوي، وإن كانت في الصدر الأول لا يعمل بها إلا أولو الفتوة.

ولا شك أن ذلك وإن تقرر من السنة فإنه لا زال على ما هو عليه سنة محترمة عندهم يعملون بها عند ارتفاع المانع، فلا وجه للإعتراض في هذا المقام بأن ذلك موجب لترك هذه السنن. والسنة لا ينبغي تركها. ومن أحيا سنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة. لما قلناه من أنهم يعملون ذلك في محل غير الشهرة، مع أنهم لا زالوا يحترمونها لسنتيتها، وإنما تركها عارض بما أشرنا له، والله الموفق ...

باب في لباسه رضي الله عنه

كان الشيخ رضي الله عنه يلبس سلهاما من الوبر في بعض الأحيان، وفي بعض الأوقات يلبسه من الصوف، يدخله في عنقه، ولا يجعله على عاتقه من غير أن يدخله في عنقه، ويضرب

بطرفه على رأسه لتغطية وجهه عندما يريد أن لا يرى أحد وجهه، وبالأخص عند مروره بين النسوان وقت زيارته ووعظه لهن(8).

ولون برنسه البياض، وكان يتخيل لي أنه أسود، ولا يبعد أن يكون عنده، وله برنس كذلك من صبغة الرحمان، وأما لون الوبر فهو معروف، وكان يلبسه سفرا وحضرا، ولباس البرنس من لباس السلف الصالح، ففي العتبية قال مالك : سمعت عبد الله بن أبي بكر وكان من العباد وأهل الفضل يقول: ما أدركت الناس إلا ولهم ثوبان، برنس يغدو به، وخميصة يروح بها، قال القاضي أبو الوليد ابن رشد : البرانس ثياب في شكل الغفائر عندنا، مفتوحة من أمام، تلبس على الثياب في البرد والمطر، وأما الخمائن فهي أكسية من صوف رفاق معلمة وغير معلمة يلتحف بها، كانت من لباس الأشراف في أرض العرب الخ ... كما كان له رضي الله عنه كساء يلتحف بها، وكان يعقد طرفها بحزامه حتى لا تتحل عن كتفه، وكانت من النوع الرفيع والسدي الرقيق المتنافس في عمله للأكابر.

وكان سيدنا رضي الله عنه كثيرا ما يلبس الصوف، وكان يقول ما معناه : كل من لم يتمتع جسده بلباس الصوف فقد ضيع نفسه، وكان رضي الله عنه يلبس الملف(9) كذلك.

باب في عمامته رضي الله عنه

كانت عمامته قدس سره على ما بلغنا على لسان الثقة من الثوب المعروف بالمطيب، وهذا الثوب كاد أن ينقطع، وهو من الكتان الغليظ، ذات عشرة أدرع، ويكورها على قلنسوة حمراء من تحتها قلنسوة بيضاء، ويغرز طرفها بإبرة حتى لا تتحل، ويلف عليها حبلا رقيقا من الوبر على عادة أهل الشرف الوطني(10)، وقد تبركت بحبل من الحبال التي كان يلف بها

(8)

:

()

:

...

.311

(9)

:

(10)

:

عمامته(11)، وجعلته على رأسي، ولويته على عنقي في وسط جماعة من الإخوان، من جملتهم محبنا الأعز المرحوم السيد الحاج محمد فتاح بن المدني القباچ(12)، وهذا الحبل كان على ملكه، وقد أدرجه في عنقي وعنقه، وهذا الرجل من الفانين في محبة الشيخ رضي الله عنه، وقد أفضى به الإستغراق في المحبة إلى الجذب الذي اتصف به آخر عمره بنحو أربع سنين، وقد توفي رحمه الله عام 1333هـ، وحول هذا المقام أنشدت مخاطبا لسيدنا رضي الله عنه وأرضاه وعنا به(13) :

رغما على أنف من يراه منصرما	حبلي بحبلك لا يزال منبرما
بها أعز كرامة لدا الكرما	ومنك أسديت لي أجل مكرمة
فنلت أقصى المرام منك والنعما	أدنيته منك في سر وفي علن
يا سيذا كل من به احتمى سلما	مولاي يا أحمد بن سالم سندي
من فوق هامة فضل قد علت همما	ربطت رأسي بحبل كنت تربطه
بنيل سر بذاك أمره عظما	وقد تيقنت أن السعد ساعدني
حبلي توثق في حبل بك انبرما	وذاك طبق اعتقادي فيك يا أملي
به حبالتي وكن لي راعيا ذمما	بالله لا تقطع الحبل الذي اتصلت
سواك دنيا ولا أخرى لدا العلمما	فقد بلغت مقاما ليس يدركه
لكل أمر مهم كلما دهما	ألسنت أنت إمام الأوليا وبك المولى الولاية في الدارين قد ختما
من بحر جودك وهو يكشف الغمما	وقد رجوتك في دنيا وأخرة
بنيلك المبتغى طبق الذي علما	وحاش أن لا أنال فوق أمنيته
أل وصحب ومن به قد احترما	والمصطفى لك قد أدى ضمانته
	صلى عليه الإله دائما وعلى

(11) :

(12) :

(13) :
...

باب في نعال سيدنا الشيخ رضي الله عنه

كانت نعل سيدنا رضي الله عنه من النعال المعروفة عندنا بفاس بالنعال المشيطة، وهي الجنس الرفيع من النعال في وقته، وهي تشابه النعل الشريف في الهيئة، فكان رضي الله عنه يلبسها مدة قليلة ثم يلتمس الأصحاب منه أن يتحفهم بها فيلبس بدلها جديدا، وما شوهدت في رجله الشريفة نعل بالية، وذلك حالة ركوبه ومشيه راجلا، مما ازداد به حساده عجا من الترفه الذي لم يظفروا منه بأقل قليل، وقد تشرفت بالتبرك بنعله اليسرى عند محبنا الأعز السيد أحمد بن الحاج محمد بن المدني القباج(14). وباليمنى عند عمه المحب الصادق السيد محمد فتحا القباج، وتشرفت كذلك بالنعل الشريف التي هي عند الشريف الجليل سيدي إبراهيم بوطالب، وكنت عملت في ذلك أبياتا ذكرتها في الرحلة الوهرانية(15)، وتبركت بها عند أولاد السيد ابن التاج بوجدة حيث كنت بها قاضيا، وتبركت بها عند الأمين الكاتب بدار المخزن السيد علال بن حيون(16)، ولم أعرفها عند غير هؤلاء.

1290

(14)

1320

.32-21

.21

:

.31

(15)

بمناه مهما حل رحب مناره
بمدائح نظمت بسلك نظاره
ما فاتني الآيات من آثاره
أبغى سوى التعطير من أخباره
فلقد ظفرت بلثم نعل يساره
عيناى منه تبركا بغباره
دنيا وأخرى كي أرى بجواره
في الدهر لا أخشى جميع شراره
وبجاه ما قد نال من أذكاره
من فيض عرفان ومن أسراره
تعشى جميع الآل مع أنصاره

لله من شيخ يفوز مريده
إني لأحمد خدمتي لجنابه
إن كان يوما فاتني منه اللقا
فأنا الذي في حبه أصبحت لا
إن لم أكن قبلت أخصم رجله
وبموطئ القدم الشريفة كحلت
وبذاك أمل أن أفوز بمطليبي
وأكون ملحوظا بعين عناية
متوسلا في ذا بشيخي المرتضى
وبجاه ما قد نال من خير الورى
فعليه خير تحية لا تنقضي

1284

(16)

105

باب في سبخته رضي الله عنه

كانت لسيدنا رضي الله عنه سبحة يذكر بها أذكاره اللازمة وغيرها (17)، وكانت من النوع المسمى باليسر (18)، ولم يكن فيها ترصيع بفضة ولا غيرها كما يستعمله من دأبه الفخر، وإنما اختار هذا النوع لسبخته والله أعلم لأمرين، أحدهما أن هذا النوع طيب كما أن الذكر طيب، فاختر الطيب للطيب، ثانيهما أن هذا اليسر فيه فال حسن، والنبي (ﷺ) كان يحب الفأل الحسن، وكان عدد حبات سبخته مائة بلا زيادة ولا نقصان. وعلى هذا العدد تعقد كل سبحة تجانية اقتداء بشيخنا رضي الله عنه.

وعند السادة الإخوان التونسيين أخذ السبحة من نوع العناب (19) ويقولون : من لم تكن عنده منه سبحة فليس بشيء في الطريق.

باب في مأكوله رضي الله عنه

كان سيدنا رضي الله عنه يقول : لا يكمل نفع الأشياء إلا بعد بلوغها من الثمار واللحم وغيرها. وكان يأمر المتكلف بنفقته أن لا يشتري من ذلك إلا الحسن الجيد. وأما ما كان غير كامل الحسن فإنه يرده ولا يقبله (20)، وكان رضي الله تعالى عنه لا يأكل في اليوم إلا مرة واحدة، وذلك في الساعة العاشرة من النهار. وكان كثيرا ما يأكل الكسكس على نوع مخصوص من الطبخ، وكيفية ذلك أنه يأخذ المسخنات المعروفة عندنا برأس الحانوت، ويطبخها مع التمر المجهول، ويجعل ذلك خضرة

(17)

:

(18)

:

هو اليسر إن أردت عزا وراحة
جليل محبب لدا الناس كلهم
يفوح بعطر المسك في كل ساعة
ويكفي افتخارا أنها السبحة التي

وكنزا من الخيرات لا يتبدد
ولونه صاف ذو نظارة أسود
لتعلم باليقين أنه الأجود
بها يذكر الشيخ التجاني أحمد

(19)

:

(20)

:

:

:

:

على الكسكس ويأكل منه لقيمات، ثم يأخذه الإخوان فيأكلوه تبركا، وكان يطبخ أيضا اللحم على هذه الكيفية، وهذا النوع كالنوع المعروف عندنا بالمروزية، إلا أنه يجعل التمر عوضا عن الزبيب، ويشرب على ذلك شراب الزبيب.

وحدثني البركة الأجل المقدم سيدي الطيب السفيناني(21) سقاني الله وإياه من كأس شيخنا الرباني أن المقدم سيدي موسى بن معروز(22) شكأ إلى سيدنا رضي الله عنه كثرة النوم وعدم القدرة على قيام الليل، فأمره بتقليل الأكل. فقال له : لا أقدر على ذلك، فأمره بأن يأكل في كل يوم مرة من النوع الذي يشتهييه ما يقدر عليه، ثم كذلك في كل يوم، فاستعمل ذلك فوجد في اليوم الأول بعض المشقة في احتمال ذلك، وفي اليوم الثاني انتقص من أكله قدر يسير، وخف عنه بعض الضرر، ثم كذلك حتى تعودت نفسه الأكل اليسير في وقت واحد من مجموع الليل والنهار، وصار يقدر على القيام بنشاط نفس.

اللحم :

كان سيدنا رضي الله عنه لا يأكل من اللحم إلا ما كان سمينا، وأما الهزيل فإنه لا يأكله ولا يأمر بشرائه. وكان صاحبه وخادمه سيدي العربي الأشهب الفاسي(23) مكلفا باشتراء المئونة اليومية لدار سيدنا رضي الله عنه. وقد اتفق يوما أنه اشترى لدار سيدنا رضي الله عنه سبعة عشرة قسبة من اللحم هزيلة في زمن الشتاء، فلما رآها سيدنا رضي الله عنه أمر بإخراج ذلك اللحم من داره، وقال لأهله : لا تأكلوها، وأمر بإعطائها لمن اشتراها، وقال : خذها أنت لا يدخل لداري هزيل، وكان يقول لمن يتولى نفقته : لا تشتري الهزيل ولا الصغير واشتري العظم الغليظ.

					42	1	(21)
							(22)
		1257					
		293	3		261		
	19				1		(23)
4					486-474		
					1		
							94-81
						50	

اللفت :

كان سيدنا رضي الله عنه يعجبه من أنواع اللفت نوع المحفور، وأما نوع البلدي فكان لا يحبه، وكان يذمه غاية الذم لبرودته وضرره بالنبولة، وقد بلغنا عنه رضي الله عنه أنه دخل يوما عليه أحد أصحابه وهو سيدي أحمد الفيلاي(24)، وقال له : يا سيدي إني اليوم تغذيت مع سيدي فلان. وهو صاحبه سيدي الحاج الكبير لحو(25) غداء جيدا. فقال له : ما هو ؟ فقال يا سيدي : الدوارة باللفت البلدي، فقال له سيدنا رضي الله عنه : الله يلعنها ويلعن شاكرها. هذا لفظ سيدنا رضي الله عنه. ومراده بلعن شاكرها أي من يشكرها إلى الناس ليقبلوا على أكلها فيحصل لهم ضرر. وكان المقدم البركة سيدي الطيب السفيناني لا يأكلها من ذلك الوقت إلى أن توفي رحمه الله اتباعا لسيدنا رضي الله عنه، وقد كان يسميها بالملعونة، وفي اللفت ألغز بعضهم بقوله :

عليه أثواب من السندس
بينتها للحاذق الكيس

ما أبيض في خده حمرة
اللفت في أوصافه جملة

(24)

1285

.376-369

.16

.177-170 1

.10

(25)

1277

17

.275 2

.507

.40

.1

.20

فأجبتة بقولي :

قولا لطيفا لذوي الأنفس
قولي فقد اللفت في الأنفس

اللفت في لغزك لما بدا
فإن إلى اللفت في شرحه

الخرشف :

كان سيدنا رضي الله عنه يعجبه الخرشف ولا يقول بالقناريه. وهي نوع منه معروف عندنا بفاس بهذا الاسم. وكان يفضل الخرشف على أنواع أخرى.

المكور :

كان سيدنا رضي الله عنه يحب الأكرنب المعروف بالمكور ويعجبه غاية.

القرعة :

كان سيدنا رضي الله عنه يعجبه من نوع القرع المعروف عندنا بالسلاوية. ويقول إنها تبرد الحرارة ولا تضر بالذات. وهي تنفع المحمومين. ونقل لنا عن الولي الصالح سيدي العربي بن السائح كيفية في استعمالها، وذلك أن تؤخذ وتقتشر ظاهرا وباطنا، وتبخر أو تطبخ بماء قليل في إناء، وهذا أحسن، ثم تؤخذ عصارته مع شيء من المسك، ويشربها المحموم يشفى سريعا بإذن الله تعالى، وأما أكلها مع اللحم فهو جيد نافع معتبر لكل من اختبر، وكذلك أكلها على هذه الكيفية فهو جيد للغاية، وذلك أن تؤخذ وتنقى وتطبخ بزيت وشيء قليل من البصل والمعدنوس، فإذا غلت يلقى عليها شيء من الكمون، فإنها تأتي بديعة الأكل مبردة للحرارة.

الخدنجال :

كان سيدنا رضي الله عنه ينهي عن استعمال الخدنجال لزوال حصر البول وحرقته شربا، ويأمر بأن يستعمل عوضه البسيبيسة، وهي معروفة عند أهل فاس تغلى في الماء ويبرد ويشرب لذلك، فإنها أنفع، ولأنها لا يخشى معها توريث حرق النبولة ونحوه من الضرر الذي يحدث عن الخدنجال.

القطران :

كان سيدنا رضي الله عنه يحب رائحته ويستعمله في أنية شربه ويمدحه لأصحابه لشدة نفعه، وكان يقول : لولا أن أهل فاس لم يكن عندهم القطران ويشمون رائحته لما تواكلهم بالتخم.

ومما شوهد من كرامات سيدنا رضي الله عنه أنه جيء له بإنسان قد شرب السم وأضر به ضررا عظيما، ولم يجد له دواء، فقال لهم سيدنا رضي الله عنه لو أخذتم القطران وفعلتم هكذا وهكذا وأشار بيده إلى صدر المصاب لبرئ بإذن الله، فحصل الشفاء لذلك المريض بإشارته رضي الله عنه،

وهي كرامة له، ومن فعل مثل سيدنا رضي الله عنه لمصاب واستحضر همته في ذلك فلا شك عندي أنه ينفعه إن شاء الله، وقد فعلت ذلك بمصاب به فوجد الراحة من ضرره والحمد لله.

الماء :

كان سيدنا رضي الله عنه يفضل ماء العين على ماء الأودية، وذلك لصفائه من الكدر والخبث الواقع في ماء الواد، سيما إذا كانت الشمس تشرق فيه طوال النهار، فإنه تجتمع فيه الأضرار، ولذلك كان رضي الله عنه لا يشرب غالبا إلا منه، ويمدح استعماله لأصحابه عن استعمال غيره، فإن قلت ماء العين ثقيل واستعمال الخفيف أولى ؟ فالجواب أن ماء الوادي أعظم ضررا بسبب العفونات والكدورات الواقعة فيه، ولهذا فاتقاؤها أسلم لمضرته بنبولة الإنسان.

ضرر الحمى :

كان سيدنا رضي الله عنه يقول : الحمى كلها حارة، وإنما تكون داخل الجسم فيبرد ظاهر الجسد من قبل شدتها، فلذلك إذا انفتحت في الذات انفتحت بالحرارة.

قال الولي الصالح سيدي العربي بن السائح رضي الله عنه : مما جرب لشفاء المحموم أن يؤخذ عود الكنا ويبرد بنحو سكين، ويجعل ما ينزل منه في قطيع فيه ماء سخون، ثم يحرك فيه حتى تظهر رغوته من القطيع، ثم يصب منه نحو كأس في ماء، ويشربه المحموم، يشفى سريعا بحول الله وقوته(26)، ثم قال هذا هو الذي نعرفه وجربناه فوجدناه صحيحا، وأما ما يجي من الروم الذي يسمونه روح الكنا فإنه لا علم لنا به ولا معرفة لنا به، ولا نتداوى به أصلا، لأنه لما صنع صار سما خارقا بسبب التصعيد، فهو قاتل، وقد شوهد ذلك في بعض الناس، والله يتولى هداينا جميعا بمنه.

الموسيقى :

لا خفاء على من له ذوق سليم أن النفس تتفعل بألة الموسيقى، حتى أن من زال عقله وصارت تعزف وهو يستمع لها أحيانا فإنه يرد له عقله. وسماعها كالسماع بحسب السامعين في كلام عند علماء الشريعة بالتحريم والتحليل، ولسنا نتعرض لهذا المبحث هنا، وإنما نتكلم هنا على ما كان يستعمله

(26)

سيدنا رضي الله عنه، فقد بلغنا عنه رضي الله عنه أنه أنشدت ليلة بين يديه قصيدة فتواجد فقال رضي الله عنه لأصحابه : أهنا من يعرف الموسيقى ؟ فقيل له كائن، فسأل منه إحضار أهلها في تلك الليلة، فأسعف السائل لذلك ليالي تسعا، وكان إذ ذاك رمضان، واستعملوا في الليلة الأولى كلام ابن الفارض وغيره من القوم(27).

تعظيم الأسماء والآيات :

لا يخفى أن تعظيم أسماء الله والقرآن من شعائر الإيمان، ومن أهان إسما من أسماء الله تعالى أو آية من آيات القرآن الكريم فقد ضل عن سوء السبيل بالخذلان، وإهانة ذلك يكون بعدم المحافظة عليه من القاذورات ونحوها، ولذلك حرم بعضهم تصفيح أوراق المصحف مع بل الأنامل بالريق الذي هو طاهر خوفا من تلطخه مما يستقذر.

وقد كان سيدنا رضي الله عنه يقول : من ألقى أسماءه تعالى أو كلامه في نجاسة يكفر، ولهذا ينبغي لمن كتب اسما من أسماءه تعالى أو آية لإنسان أن يأخذ على مريدها العهد بالمحافظة عليها أتم الحفظ، بحيث لا توضع إلا في المواضيع الطاهرة الطيبة، وأن يشمعه ويغلفها إذا أراد أن يعلقها على من لا معرفة له من الصبيان والنسوان، خوفا عليهم أن يصاب مستعملها بما يؤدي إلى الخسران.

ومما ينبغي أن يتقطن له أن لا يدفن مع ميت اسم أو آية ونحو ذلك، وإن أوصى بأن يدفن معه ذلك لما يرى فيه من الثواب، فإن ذلك من الضلال، ولذلك كان سيدنا رضي الله عنه يقول : من يدفن مع الميت اسما من أسماءه تعالى أو قرآنا يكفر، لأن الميت لا محالة يرجع دما وصدیدا(28).

(27)

نسبه رضي الله عنه

قال العلامة سيدي محمد بن المشري في كتابه روض المحب الفاني ما نصه :

أما نسبه رضي الله عنه فهو ينتمي إلى مولانا الحسن بن علي رضي الله عنهما، وتحقيق نسبه رضي الله عنه محقق عندي، ولم يعول الشيخ رضي الله عنه على ما هو مسموع عند الناس، وما هو مكتوب في العقود، حتى سأل النبي (ﷺ) عن نسبه وحققه له، سمعته يقول رضي الله عنه : سألت سيد الوجود (ﷺ) على نسبي هل شريف أم لا ؟ وعلى أهل القرية التي ولد فيها فإنهم ينتسبون إلى الشرف ؟ فأجابه (ﷺ) : أنت ولدي أنت ولدي وكررها ثلاث مرات، وأما أهل القرية فقال لي الشيخ رضي الله عنه : سكت عني (ﷺ) ولم يجبني بشيء في تحقيق نسبتهم، والشيخ لم يكن نسبه منهم، بل جده النازل فيها طارئ عليهم (29)، وليس بينهم نسب إلا من النساء، وإنما نسب إليها لتوطن أجداده بها، هكذا أخبرني رضي الله عنه، فمن حين سمع تحقيق نسبه من سيد الوجود (ﷺ) صرح بالشرف وجزم به للخاص والعام، وذلك لتحقيق نسبه في نفس الأمر، لأن سيد الوجود (ﷺ) أخبره يقظة لا مناما، وسأله عن أمور كثيرة ظاهرة وباطنة وأخبره بها (ﷺ)(30).

وعمود نسبه رضي الله عنه كالتالي :

هو العارف بربه القطب الرباني والغوث الصمداني أبو العباس مولانا أحمد بن محمد فتحا بن المختار بن أحمد بن محمد بن سالم بن أبي العيد بن أحمد بن أحمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد الجبار بن إدريس (31) بن إدريس بن إسحاق بن زين العابدين بن العارف بالله سيدي أحمد بن محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي كرم الله وجهه من مولاتنا فاطمة الزهراء بنت مولانا رسول الله (ﷺ).

(29)

.2

(30)
(31)

ذكر أولاده رضي الله عنه

كان لسيدنا الشيخ رضي الله عنه في حياته عشرة أولاد ستة منهم من الذكور وأربعة من الإناث، أما الذكور فهم سيدي محمد الحبيب الأول وسيدي المختار وسيدي خليفة وقد توفي صغيرا بفاس، وسيدي إسماعيل وتوفي صغيرا هو الآخر بأبي سمغون، وسيدي محمد الكبير (32) وسيدي

(32)

()

1238

:

:

: 239 1

:

: 34 3

:

:

:

:

:

محمد الحبيب(33) أما الإناث فهم للا السعدية وللا زينب وللا فاطمة وللا عائشة. ولم يخلف رضي الله تعالى عنه بعد وفاته سوى اثنين من أبنائه وهم سيدي محمد الكبير(34) وسيدي محمد الحبيب(35) أما الباقي فكلهم ماتوا قيد حياته.

ذكر عبيده وخدامه

كانت لسيدنا رضي الله عنه مجموعة من العبيد والإماء، وكان يحسن إليهم غاية الإحسان، كما كان كثيرا ما يشتري العبيد ويعتقهم في سبيل الله، حتى إنه اشترى يوما نحو الخمسة والعشرين نفسا وأعتقهم كلهم، وقد وقفت على تقييد الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح

1215 (33)

15 ()

1265

52 1267

:

(34)

:

1309

18 (35)

1329 12 1314 1266

14

رضي الله عنه قال فيه ما نصه : كان مولانا الشيخ رضي الله عنه يملك الرقيق كثيرا ويحسن إليهم كثيرا، حتى كانت مماليكه أحسن من ممالك الملوك، بحيث إذا مر مملوك ذو هيئة يقول الناس : هذا مملوك سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه، وكان لا يعتق من الرقيق الذي في داره ولا يبيع منه، ويقول : إذا انتقل من عندنا وفقد النعمة التي كان فيها عندنا نكون تسبينا له في شر(36).

وإذا أراد أن يعتق اشترى وأعتق فوراً من غير أن يدخلوا داره، بحيث أن العدل الذي يكتب رسم الشراء هو الذي يكتب رسم العتق، قال : وكان يعطي لمن يعتقه من العبيد عشرة مثاقيل، قال : وانتق أنه أعتق في يوم واحد على هذه الكيفية سبعة عشر رقيقاً، قال : فقال أحدهم : أروني سيدي هذا الذي اشتراني وأعتقتي، فأخبر الشيخ بذلك، فقال : ايتوني به، قال له : يا سيدي أنت الذي أعتقتي ؟ فقال له نعم، قال : قد وهبت نفسي لك، فقبله، وجعل يخدمه حتى كان من أمره ما كان، بحيث كان يرى النبي (ﷺ) ولا يتبجح بذلك، حتى يقول له : أنا محمد بن عبد الله رسول الله، ومن لم تحصل له هذه المقالة لا يسلم له في الرؤية.

وهذا العبد هو سيدي بوجمعة المشهور بين الأصحاب، قال : وكانت مماليكه رضي الله عنه كلهم أخذين لورده المحمدي، وكان يزوج عبيده بالإماء، حتى أنه لا يترك من الحيوانات الصامته أنثى إلا أمر بتزويجها بذكر والعكس كذلك(37).

وكان عند النوم يقف عند الباب حتى يدخل كل عبد وزوجته إلى محلها، ويسد عليهم الأبواب بأقفال، ويجعل المفاتيح في صندوقه، وقبل الصبح بنحو ساعة يوقظهم ليغتسل مرید الغسل، ويتوضأ مرید الوضوء، ويصلون جماعة إه... ومن جملة عبيده رضي الله عنه سيدي الحاج

(36) : 15

(37) : 15

بوجمعة(38) المذكور سابقا، وسيدي مسعود(39) وسيدي بلال(40) وسيدي بركة(41) وسيدي مهدي(42) وسيدي سالم الصغير(43) وغيرهم.

ذكر وفاته

كانت وفاة سيدنا رضي الله عنه صبيحة يوم الخميس 17 من شهر شوال عام 1230هـ، وذلك بعد أن صلى الصبح، ثم اضطجع على جنبه الأيمن رضي الله عنه، ثم دعا بماء فشرب منه،

(38)	(ﷺ)	:	(ﷺ)
(39)	1 219	:	1226 216 .126
(40)	.125	:	215
(41)	215	:	...
(42)	.128	:	.127
(43)	.129	:	.130

ثم عاد إلى اضطجاعه على حالته، فطلعت روحه الكريمة من ساعته، وصعدت إلى مقرها الأقدس(44).

ثم غسل رضي الله عنه بمقر منزله المعروف بدار المرابية، وحضر جنازته المباركة ما لا يكاد يحصى من علماء فاس وصلحائها وفضلاتها وأمرائها، وتولى الصلاة عليه بمسجد القرويين العلامة الأوحى، والمفتي الماهر الأمد، أبو عبد الله سيدي محمد بن إبراهيم الدكالي(45)، وازدحم الناس على حمل نعشه المبارك الميمون، وكسروه بأثر دفنه أعوادا صغارا ادخروها بما حمل فيه من السر المصون، ثم وضع في ضريحه والقلوب منقطرة لفقده، وكل حاضر دموعه جارية على خده، وذلك بموضعه المعلوم بزوايته المباركة(46).

									(44)
	:							:	
	:		...					:	
3		152	3						.146
									(45)
10									
									1241
	355	2		254	1	1526	381		789
									(46)
	21								
									1231

خاتمة

لم يكن العلامة سكيرج فيما صنف جامعا شارحا مختصرا فحسب، ففي هذا القول غمط لمكانة الرجل العلمية، بل توافرت لديه كل الأسباب التي أهلته للتفوق والريادة، فهو حافظ مفسر دارس للقرآن وعلومه، وهو أيضا دارس حافظ شارح للسنة ومجاميعها، وهو من حيث تمكنه من العربية يعد مجددا فيما كتب عن أصولها وقواعدها والأشباه والنظائر فيها، وهو من حيث اطلاعه على التراث الفقهي والأصولي الذي سبق عصره قد درس كل مصادر هذا التراث دراسة مستوعبة لأدق خصائصه، ووقف على مناهج الأئمة في الإجهاد، وعوامل الاختلاف بينهم في الآراء، وقد منحه الله عقلية تحررت من الجمود والتقليد، وتمتعت بالنظر العلمي المستقل، فجزاه الله خيرا على ما أسداه لهذه الأمة من خدمات جليلة، حيث ستبقى هذه الخدمات حية في ذاكرة التاريخ، ولا محالة أنها ستبني الأجيال القادمة بما لهذا الرجل الفاضل من آياد جليلة سامية في نطاق العلم والمعرفة الصحيحة.

وبما أن هذين الجزئين لم يسعا ما كنت أريد إدخالها ضمنهما من تقايد ورسائل العلامة سكيرج، ارتأيت أن يكون لهذا البحث المتواضع جزآن آخران، وهما الثالث والرابع، حيث سيمكناني من إضافة مقتطفات أخرى من أجوبة وتصانيف هذا العالم الجليل.

وبهذا ينتهي الجزء الثاني من هذا البحث، ويليه الجزء الثالث، وبعده الرابع.

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون،
وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.